مناقشات

تعقيب على نقد

بقلم الدكتور عباس الجراري

عودتنا مجلة « الآداب » الموفرة ان تخصص اثر كل دورة تعقد لمؤتمر الادباء العرب عددا ممتازا تنشر فيه معظم الابحاث التي قدمتمع نماذج من القصائد التي القيت في مهرجان الشعر الذي غالبا ما ينظم في نفس ايام الدورة او بعدها بقليل .

ولكنها في هذه المرة ـ وهي تبدأ عامها العشرين وتدخل تنويعات جديدة في ابوابها ـ لم تكتف بنشر اغلب ابحاث مؤتمر الادباء العرب الثامن وبعض قصائد مهرجان الشعر العاشر المنعقدين في دمشق من حادي عشر دسمبر حتى الخامس عشر منه ، بل زادت فكلفت نقادا من مختلف انحاء الوطن العربي بكتابة نقود حول تلك الابحاث ، خصصت لنشرها عدد فبراير الماضي (١) .

وحيث اني شاركت ببحث في موضوع « الاديب العربي بين التراث والمعاصرة في معركة المصير » فسأكتفي بالتعقيب على النقد الذي دار حول هذا الموضوع والذي كتبه الاستاذان احمد ابو سعد وعبدالكريم غلاب ، وساقتصر فيه على مراجعة هذا الاخير لما في نقده من تجريح ولا موضوعية ، على عكس الناقد اللبناني المعروف الذي كان في غاية الدقة والموضوعية والانصاف . وسأحاول ان ابقى في حدود بحثي حتى لا اكون متطفلا في الدفاع عن الدارسين الاخرين الذين شاركوا بابحاث في نفس الموضوع .

ولا اخفي القارىء الكريم اني ما كدت المح اسم الاستاذ غلاب حتى انتابني شعور بالضيق والحرج في آن واحد ، والسبب انه ليس ناقدا ولا يمكنه ان يدّعي ذلك على الرغم من الفوضى التي تعم الفكر والادب في بلادنا ، فهو كاتب قصص ومذكرات صحافية وما اليها من الكتابات الخفيفة التي يفرضها عليه دوران المطبعة كل يوم والتي وجهت فكره وجهة معينة وصبغت اسلوبه بخصائص تبعده عن ان يكون ناقدا او شبه ناقد ، وربما حالت بينه وبين القراءة ـ اية قراءة ـ فضلا عن القراءة الجادة التي هي اساس كل نقد . والسبب كذلك انه يختلف معي في خط السياسة والفكر وانه من جيل ما زال ـ رغم انهياره ـ يحاول ان يفرض التوجيه والوصاية على جيلنا والاجيال الصاعدة . والسبب بعد هذا انه مواطن لي وانّا جميعا اعضاء في المكتب التنفيذي لاتحاد كتاب المغرب ، وانه نتيجة ذلك سيكون اما مضطرا الى مجاملتي في نقده ، واما محاولا تحطيمي بحافز من المنافسة الرخيصة ومايحركها من مركبات ، وجريا على المفهوم الذي يعطي هو وجيله للنقد باعتباره رديف الهدم وللناقد باعتباره صاحب فأس عليه ان يشرف على الضحية ويقف منها في مكان عال حتى يستطيع ان يهوي عليها بضربة قاتلة لا ترفع الرأس بعدها ابدا .

وما كدت انتهي من قراءة « النقد » حتى تأكدت لي كل هذه الاحاسيس . ومجمل ما فيه ان نتائج الابحاث جاءت « هزيلة » لانها « مليئة بالجانبيات والافكار المسلمة والحقائق العادية البسيطة الاولية » ولانها محشوة (بالاستطرادات) ولانها قامت على آراء « مستهلكة » لم تزد على ترديد بعض (البدائيات) وفلسفتها (بشكل لا يتصل بموضوع البحث من قريب وربما من بعيد) .

ويبدو (الناقد) غلاب غير متحكم في اعصابه ولا متمالك نفسه، وهو يلقي هذه الاحكام الارتجالية الخطيرة على جميع الابحاث التي قدمت في موضوع التراث والمعاصرة ، فيوجهها كلها او جلها الى بحثي وكأنه بذلك لا يتردد في القول باني انا المقصود بها عنده .

وقد حاول قبل ذلك ـ وفي البداية ـ ان يطرح المشكل ككل لينسفه من الاساس ففال : « امام الموضوع وممارسته نجد انفسنا في حيرة. فالذين حددوا الموضوع ليتناوله المؤتمر بالدرس كانوا مجازفين بموضوع عام يضع قضية وهمية اكثر منها حقيقية . ومن ثم وقع الذين تناولوا الموضوع بالدراسة في الفخ . وكان عليهم ان يخرجوا القضية من اطارها الوهمي ليجعلوا منها قضية جادة تستحق الدراسة والبحث وتقديم تقرير عنها الى مؤتمر هام .قضية التراث والمعاصرة قضية وهمية لان احدا لا يستطيع ان ينكر التراث الا اذا كان غير جاد وان احدا لا يستطيع ان ينكر المعاصرة الا اذا كان غير جاد . واستغلال التراث والمعاصرة في معركة المصير قضية ممارسة في غير ما حاجة الى بحث يصدر عنه المؤتمر توصيات » .

ولا يشك احد يقرأ هذا الكلام في ان صاحبه يعيش في غيبة تامة عن الصراع الفكري الدائر في العالم المعاصر ولا سيما في الوطن العربي ، والمغرب خاصة حيث العراك قائم على اشده بين التراث والمعاصرة سواء داخل الاطار المعرب او المفرنس . والسبب انه لا يتتبع بالقراءة ما يجد في هذا الصراع فضلا عن ان يشارك في اغنائه او توجيهه . ولو كان يفعل لعرف ان اتجاه الرافضين للتراث والماضي عامة بدأ مع فجر النهضة العربية الحديثة واستمر بين مد وجزر يظهر حينا ويختفي احيانا كثيرة الى ان كانت هزيمة خامس يونيو فزاد قوة وعنفا وانتشارا ، ولعرف كذلك ان المنكرين له ليسوا من غير الجادين لان فيهم من يعتبر من رجال الفكر الطليعيين ، ولعرف بالتالي ان رد الفعل لهذا التيار يتمثل في تراثيين منكرين للمعاصرة وهم كذلك ليسوا من غير الجادين لان فيهم من يعد من الرواد . وهذا ما دفع المنظمين للمؤتمر ان يدرجوا موضوع التراث والمعاصرة في جدول الاعمال باعتباره ليس « قضية وهمية » كما توهم (الناقد) ، بل باعتباره قضية حيوية في صميم الفكر العربي المعاصر وفي صميم معركة المصير ، وباعتباره كذلك يجسم عقدة مزمنة لم يستطع العقل العربي ان يحلها او بالاحرى لا يملك الشجاعة الكافية لحلها . ولو انه استطاع لامكنه ان يخرج من النزاع الثقافي والحضاري الذي يعاني منه والذي يكبله ويحول دون فتح آفاق المعرفة واسعة امامه .

وجهل (الناقد) بهذه الحقيقة وانقسام رجال الفكر حولها هو الذي جعله يعتبرني غرقت في التفريق بين الذين ينكرون قيمة التراث ويرون ضرورة الانطلاق من روح العصر والواقع ونبذ التراث عامة ، وبين الذين يرون الاقتصار على التراث العربي والتمسك الاعمى بروح السلف والتحفظ تجاه ما يقدمه الغرب على انه استعماري وبين الذين ينطلقون من الاعجاب بالغرب ويرون تراثه كل شيء وانه المنجى الوحيد . وعنده ان هذا التفريق ليس غير « صور عقلية منطقية غرق الباحث في تفسيرها والرد عليها رغم انها لا تمت للواقع الفكري ازاء التراث والمعاصرة بشيء » ، وهو في الحقيقة ـ وعلى العكس من ذلك ـ تحليل دقيق ومفصل لهذا الواقع وان لم اغرق فيه كما زعم (الناقد) لانه كان مجرد مقدمة للموضوع لم تستغرق مني غير صفحة ونصف من احدى وعشرين هي مجموع صفحات البحث .

---

(١) العدد الثاني ١٩٧٢ . اما الابحاث فنشرت في العدد الاول (ممتاز) الصادر في يناير من نفس العام .

وحاول (الناقد) ان يجد تعليلا لتجاوب الدارسين مع القضية رغم وهميتها ـ كما يزعم ـ فرأى ان البلاد التي ينتمون اليها وهي سوريا ومصر والجزائر والمغرب « كلها اسهمت في التراث العربي وكلها تعني ببعثه واحيائه والاستفادة منه . ولذلك انعكس التفكير في التراث على ابحاث الكاتبين » . واذا كانت معظم البلدان المذكورة تعني بالتراث بما لا يحتاج الى دليل ، وأقصد مصر وسوريا ثم الجزائر على الرغم من أنها عانت الكثير في عهد الاحتلال الذي حاول فصلها عن تراثها العربي الاسلامي ، فان اعتبار المغرب مثلها في العناية ليس غير مظهر اخر من مظاهر جهل (الناقد) ومغالطة مقصودة في نفس الوقت اضطرته عن وعي أولا وعي الى التعاطف الواضح مع الرجعية الحاكمة واجهزتها المسيطرة على المواقع الفكرية في بلادنا.

ولست ادري اذا كنت سأحتاج الى ان أعرفه بالدور الذي تقوم به هذه الرجعية في طمس معالم التراث الايجابي والكشف عن الجانب الفاسد منه للتهريج الفولكلوري ولتثبيت القيم والمفاهيم البالية في نفوس الجماهير لقتل ضميرها وشل ارادتها وجعلها راضية بالواقع وخاضعة للاوضاع المتهارة المفروضة عليها . ولست ادري اذا كنت سأحتاج كذلك ان ابين له أن قضية التراث والمعاصرة انما هي جزء من قضية النضال الكبرى التي نخوض بهدف التغيير الجذري في بلادنا . ولو قرأ البحث الذي كتبت في الموضوع والذي نصب نفسه لنقده لادرك هذه الحقيقة وهي ان التفكير الذي انعكس علي في كتابته ليس غير تفكير المؤمن بمعركة متشعبة شاملة يشكل الفكر احد وجوهها واحد اسسها واسلحتها في آن واحد .

ولم يشأ (الناقد) ـ وهو يرى البحث مليئا بالجانبيات ـ ان يطلق هذا الحكم دون ان يقدم بعض الامثلة لتأكيده فساق في اول الامر « فكرة الزمان او الماضي والحاضر والمستقبل » وكنت قد ناقشتها لابطال القول الذي يدعو الى الحاضر وحده ، وقد ادرك الاستاذ احمد ابو سعد بعد هذه الفكرة ومدى اهميتها فرأى اني قمت بتحليلها « فلسفيا » و (بكثير من الاتزان والنظرة الشمولية الواعية » منطلقا من ان الحاضر غير موجود الا مرتبطا بالماضي والمستقبل ، وانه لو كان موجودا بالفعل لكان ضربا من الثبات والجمود وتوفيقا لدولاب الصيرورة وتصنيما لحركة التاريخ في لحظة معينة ، وانه اذا كان يمثل فترة الادراك الحسي السابقة لفترة الوعي فاننا لا نستطيع تصوره الا اذا دخل وعينا ولا يدخله الا اذا ملأته اشياء ملموسة اي اذا اصبح ماضيا . وانتهيت من تحليل الفكرة الى ان الارتباط وثيق بين الماضي والحاضر والمستقبل في علاقة جدلية تجعل الماضي منعكسا على الحاضر ومؤثرا في المستقبل وتجعل بذلك حركة التاريخ حركة كلية لا تتجزأ ولا تنفصل فيها الازمنة الثلاثة ولا يبقى من ابعاد بينها الا بعد واحد للانسان هو الذي يقاس بما يتحمل من مسؤوليات ويحقق من اكتشافات ويبدع من اعمال .

وانتهيت كذلك من التحليل الى اثبات حقيقة وصفها (الناقد) بانها « اولية » وهي ان الانسان مهما حاول ان يصل الى تحقيق وجوده من خلال صراع ذاتي وانطلاقا من الواقع المعاش فانه لن يستطيع ذلك بعيدا عن الناس وعن العالم وعن الوجود الزاخر بالتجارب والمواقف . والحق اني لا استغرب له كيف يعتبر هذه حقيقة اولية طالما انه يعيش في غيبة عن الصراع الفكري المعاصر وطالما انه لا يعرف ـ نتيجة ذلك ـ ان القائلين بالواقع وحده لا يعترفون بها حقيقة فضلا عن ان يسلموا بها أو يحسبوها اولية او غير اولية .

واعتبر (الناقد) « من الجانبيات والافكار المسلمة والحقائق العادية البسيطة الاولية » ما ذكرت من ان العرب انفسهم واجهوا المعادلة بين التراث والمعاصرة عند الاتصال بالامم الاخرى بعد عصر الفتوح الاسلامية . وهذا شاهد من التاريخ يدخل في صميم الموضوع، كان لزاما علي ان اذكره في جملة ما اذكر من حجج لارد على الذين لا يتصورون امكان حل المعادلة بين ان نعي ذاتنا ونعرف من نحن ونحصر ما عندنا من مقدرات وممكنات ونحدد الظروف والملابسات التي احاطت وتحيط بنا ونرسم على ضوء ذلك الاهداف ووسائل تحقيقها وبين ان ناخذ من فكر الغرب ومن جميع ثقافات العالم وحضاراته القديمة والحديثة ما هو ايجابي وما من شانه ان يقوي فكرنا الثوري ويدفع بنا الى الامام . والقصد عندي من ايراده كامن ليس في اتباته كمجرد شاهد من التاريخ بقدر ما هو كامن في الكشف عن الطريقة التي سلك العرب في معالجة المعادلة ، اذ عرفوا ـ على عكسنا نحن ـ كيف يدمجون في تراثهم ما يأخذون عن الاخرين ويصهرون القديم والجديد في بوتقة واحدة استطاعوا بها ان يحافظوا على وحدة شخصيتهم . ولجأوا في ذلك الى الترجمة والاقتباس والى اخضاع اللغة لتقبل كل ما هو جديد وتطويعها لذلك بعيدا عن التصنيم والتقديس ودون الاحساس باي نقص والى جعلها وما ينتج عنها من فكر وحضارة اوعية تمتص داخلها كل جديد في غير معاناة من الازدواجية التي نعاني منها الان . كما لجأوا الى اتخاذ موقف من كل ما يأخذون على عكس ما نفعل نحن ، اذ نكتفي بالتعرف الى الفكر الغربي عرضا وتحليلا والترويج له كما يشاء اصحابه في غير قليل من الاعجاب والانبهار دون استيعابه بوعي وعمق ودون نقده أو رفض ما هو سلبي منه .

ولا جدال في ان لشاهد بمثل هذا المحتوى في بحث عن التراث والمعاصرة قيمة لا يدركها الا من احس تجاوبا وتعاطفا مع الموضوع . وطبيعي الا يدركها من اعتبره يدور حول «قضية وهمية» لا سيما ان كان ك (ناقدنا) لا يقدر اهمية الشواهد في البحث لانه لا يمارسه ولعله لم يمارسه في حياته قط .

وكشف (الناقد) عن عدم فهمه للموضوع المطروح حين اعتبر من الجانبيات ما اخذت به نفسي « من تحليل طويل ... لافكار الحرية والثورة والوحدة » في حين ان هذا التحليل يدخل في صلب الموضوع بل يمثل لبه والنتيجة الايجابية فيه لانه يحدد الجانب الحي من التراث الذي يتصل بمعركة المصير ، اذ طالما ان الحرية هي الاداة وطالما ان الثورة هي الاسلوب ثم طالما ان الوحدة هي السبيل للمواجهة الجدية في النضال الحق وللنصر في المعركة بعد ذلك فان البحث في التراث ينبغي ان يوجه للكشف عن كل ما يعزز هذه المقومات . ولا اخفي ان اعتبار تحليل تلك الافكار من الجانبيات لا يمكن ان يفسر الا بان (للناقد) مفهوما خاصا للحرية ما اظنه الا منحرفا ، وموقفا مضادا من الثورة والوحدة لا شك ان المستقبل القريب كفيل بفضحه حين نخرج من طور الكلام الى مرحلة الممارسة .

ثم تساءل (الناقد) عن « صلة التراث والمعاصرة وموقف الاديب بينهما في معركة المصير بالبحث في فكرة الوطنية وظاهرة القومية وهل عرفها العرب او لم يعرفوها الا بعد اتصالهم باوروبا » واعتبر اثارة القضية مجرد استطراد كان الموضوع اضيق من ان يتسع له . ولو انه قرأ البحث في غير خطف ولا اسراع لادرك ان فكرة الوطنية والقومية جاءت في سياق مناقشة اتجاه الذين يرون ان الانطلاق لا يمكن ان يكون الا من الحاضر ، ماخوذين بما وصل اليه الغرب من تقدم . فهم لشدة رفضهم للماضي يريدون ان ينفوا عنه كل جانب ايجابي يمكن ان يطعم حاضرنا ، في محاولة لتجريد الفكر العربي من اي ملمح اصيل . والححت على ظاهرة الوطنية والقومية لانها الكيان الذي نناضل لتحقيق وجودنا فيه ، وكذلك يناضل حتى الرافضون للتراث .

ويبدي (الناقد) بعد هذا اختلافا معي حول فكرة يرى اني القيتها

كمسلمة وهي قولي بان تجربتنا التاريخية في الماضي البعيد والقريب هي الاطار الذي يستطيع بلورة هذا الواقع على الشكل الذي يمكننا من التخطيط لمستقبل يغنيه الماضي باضافات دون ان يفقده جدته وابداعيته وبانا ان لم نفعل ذلك قد نقع في الارتجال والاغتراب والاستلاب لفكر وحضارة القوى التي تفرض سيطرتها ونفوذها علينا . وعنده ان هذه « صرخة حماسية اكثر منها علمية » لا يستطيع قبولها ويعتبرها « اعتمادا اكثر من استلهام » وتحميل الماضي مسؤولية ضخمة لا يظن انه ـ وهو الماضي المنتهي ـ يستطيع القيام بها .

ولست ادري في كلامي ـ وهو لا شك واضح ـ ما يحمل على هذا الفهم في القاء كل العبء على الماضي . ولو حاولت ترجمته الى عبارات اخرى لقلت اننا ونحن نحاول رسم ابعاد واقعنا وتحديد ملامحه وتجديدها في حاجة الى ان نستفيد من تجربتنا في الماضي حين كان لنا كيان واضح المعالم . وعلى ضوء ذلك نخطط للمستقبل في جدة وابداع يرفدهما الماضي بما قد يضيف . ويبدو ان لفظ «الاطار» ازعج (الناقد) وجعله يرى الامر كما اوضح ، ولكن الحق ان الاستفادة من الماضي ـ لا سيما في المرحلة التي نجتاز ـ لا ينبغي ان تقف عند احياء نماذجه العلمية والادبية والفنية واستلهامها لربط سلسلة هذا الماضي بالحاضر ، بل ينبغي ان تتعداها الى البحث فيه عما يساعدنا على ان نعيد الثقة في نفوسنا وعلى ان نسترجع وجودنا الضائع منا والمتمثل في امة عربية موحدة ذات كيان متحرر وشخصية قوية . ولو ان (الناقد) لم يقف عند « ويل للمصلين » واستمر في قراءة الفقرات التالية التي فصلت فيها القول عن كيفية حل المعادلة بين الماضي والحاضر والمستقبل لتبين له ان مقولتي صادرة عن تحليل قد لا يوافقني عليه ولكنه قائم على منطق متسق في مقدماته ونتائجه خلال البحث كله.

وختم الاستاذ غلاب (نقده) بأن القى الضوء على « الموضوع الاساسي » كما يراه وكما لم يتناوله الباحثون في نظره الا برفق فقال : « وكنت انتظر ان يركزوا على الرأي في تناول التراث واستغلاله في الادب الحديث وفي معركة المصير على الاخص ولكنهم لم يفعلوا ، وكنت انتظر ان يعرضوا للنماذج الادبية وللادباء الذين استغلوا التراث العربي والاجنبي في الادب الحديث ليلمسوا مدى اسهام هذا الادب في معركة المصير او عدم اسهامه » . ولست ادري ما الذي منع (الناقد) من ان يكتب بحثا يتناول فيه « الموضوع الاساسي » في التراث والمعاصرة مركزا على مظاهرهما في الادب الحديث . ليته فعل ، اذا لافاد المؤتمر الذي قنع بحضوره مجرد متفرج يلبي دعوة شخصية . ثم انه واضح من هذا الكلام ان صاحبه يعترف بوجود قضية حقيقية يطرحها موضوع يراه محصورا في نقاط معينة . ولعلي في غير حاجة الى ان اكشف هنا عن التناقض البيّن الذي وقع فيه اذ نسي انه استهل مقاله بملاحظتين : الاولى ان موضوع التراث والمعاصرة كما حدده المنظمون للمؤتمر وجازفوا به « موضوع عام » . الثانية ان هذا الموضوع يطرح « قضية وهمية اكثر منها حقيقية » . وبغض النظر عن هذا التناقض فان (الناقد) لم يصب في تحديد الموضوع وان كنت ارى فكرة استغلال التراث في الادب الحديث ، بل لقد الححت عليها في البحث اذ اعتبرتها احدى مراحل عملية احياء التراث ، تستهدف استيحاءه ، في الخلق والابداع شعرا وقصة ورواية ومسرحا ورسما وفنا في مختلف الوانه واشكاله ، بما يبرز منطلقات الحرية والمضامين الانسانية وبما يساعد على تفجير الواقع وتغييره وبما يكشف كل ما يصلح ان يكون سلاحا نضاليا للثورة ويعمق الوعي النقدي وينمي روح المبادرة . وربما كنت سأغني البحث لو اني عرضت نماذج من الادب المستوحى من التراث ، ولكني لم افعل ، وكذلك لم يفعل غيري من الدارسين الذين تناولوا الموضوع . ونحن بذلك لم نهمل « الموضوع الاساسي » كما اعتبر (الناقد) ولا حتى جانبا مهما منه ، والسبب انه طرح قضية جذرية في الفكر العربي المعاصر وعلى مستوى مؤتمر كبير تحتاج ، ليس الى عرض امثلة كما لو كان الامر يتعلق بدرس تحليلي في الادب يلقى على تلاميذ احد صفوف الثانوي ، ولكنها تحتاج الى تخطيط وتوجيه في نقاش يساعد على تحديد المشكل وحله واتخاذ موقف مبدئي يكون فاتحة الانطلاق في مسيرتنا الفكرية حتى لا نتعثر .

اما بعد ، فلعليّ بهذا التعقيب ان اكون راجعت الاستاذ (الناقد) في احكامه التي كان يكفيني في الكشف عن زيفها ان احيل الى ما كتبه الاستاذ احمد ابو سعد واذكر بما قاله عن بحثي خاصة . فعنده انه « لا يحتاج الناظر في مضمون هذه الابحاث الى ان يقف عندها طويلا ليدرك قيمة كل منها بالنسبة للاخر وقيمتها بالنسبة للموضوع . فالذين استمعوا اليها او تمكنوا من قراءتها كان لديهم شبه اجماع على ان بحث الدكتور الجراري يأتي في طليعتها من حيث وضوحه وغناه واستيفاؤه لجميع الجوانب ومنهجيته وتركيز الافكار فيه وحسن عرضه وترابط عناصره ونفاذ صاحبه الى جوهر الحقيقة واجابته عن جميع الاسئلة التي يمكن ان تعرض لمن يبحث عن موضوع كهذا » . وعنده كذلك ان الجراري « اتخذ موقفه بالمعية تنم عن ذكاء وفطنة ملحوظة ووعي لسيرورة التاريخ » . ثم قال بعد ان لخص البحث : « هذا هو ملخص بحث الدكتور الجراري وقد حرصت على ان اثبته هنا لنكون منه شواهد قريبة تؤيد ما وصفت به صاحبه حين نسبت اليه الالمعية والذكاء وعمق التفكير . وقد شاقني فيه جملة من المزايا ، اهمها :

١ ـ تحديده جوهر الموضوع والتزامه به .

٢ ـ دراسته اياه في ضوء منهج علمي يعزز الاتجاه الوطني التقدمي

٣ ـ تصوره الواضح عن مفهوم التراث الثقافي ثم عن طبيعة العلاقة بين الواقع المعاصر والثقافة المعاصرة وبين هذا التراث من حيث هو احدى ظاهرات النشاط الخاص لوعي الانسان في واقع ماض من تاريخه ، وبكلمة ثانية تأكيده على صلة الحاضر بالماضي اي صلة الثقافة الوطنية المعاصرة بتراثها الممتد على رقعة تاريخها القومي .

٤ ـ انطلاقه في فهم التراث من الحاضر الى الماضي اي دراسته العناصر الحية للتراث ودراسة علاقاته التاريخية بقضايا الماضي في ضوء القضايا والمشكلات والاسئلة التي يطرحها الحاضر .

٥ ـ قوله بانفتاح ثقافتنا المعاصرة على الفكر التقدمي العالمي وعدم خشيته علي اصالتها وادراكه في هذه المناسبة دياكتيك العلاقة بين الداخلي والخارجي في سعيه لاقامة الاساس لحركة تطوير الثقافة باتجاه يقضي بصهر كل ما يرد من الخارج وتحويله الى ملاءمة ما في الداخل .

٦ ـ فهمه التراث وقيمه التقدمية والرجعية معا فهما منطقيا عقلانيا حضاريا .

٧ ـ وضعه الاسس العامة للاتجاه الصحيح في احياء القديم » .

عباس الجراري
استاذ بكلية الآداب ـ جامعة محمد الخامس
(الرباط ـ المغرب)

في آداب النقد

بقلم البشير بن سلامة

لقد درجت مجلة الاداب البيروتية على تخصيص جانب من كل عدد لنقد محتوى العدد السابق . وهو عمل نكبره ونعتقد ان فائدته ، مهما كانت ، تعود في اخر الامر بالنفع على الفكر والادب العربيين . ذلك ان الحركة الادبية والفكرية لن تؤتي اكلها الا بنقاد لهم من المعرفة والثقافة والاطلاع الواسع على كل الاتجاهات الفكرية والادبية ما يخوّلهم

السيطرة على كل مادة يتصدون الى نقدها .

وفي هذا السياق ، اطلعت على العدد الثاني لسنة ١٩٧٢ من مجلة الآداب وقد خصص قسم منه لنقد بحوث المؤتمر الثامن للادباء العرب . واستوقفني ما كتبه الدكتور ميشال سليمان وجورج طرابيشي عن الاداء والتعبير الفني (من ص ٦ الى ص ١٣) وفي الواقع لم استغرب ما كتباه عن بحثي في هذا الموضوع لاني قرأت لهما في اعداد سابقة لمجلة الآداب . وفكرت في أن اسكت عن الرد لخروجهما عن اسس النقد الحديث وخاصة الامانة الفكرية والحرص على تقديم آراء الكاتب في موضوعية تامة من دون تحريف ولا تشويه ، ولكني آثرت في آخر الامر ان اجهر بالرأي لتصويب ما عمد القوم الى تحريفه وتشويهه ولاذكر ببعض الاسس النقدية التي لا مفر لاي ناقد مهما كان مذهبه في الحياة ، من التنكب عنها والكفر بها .

ما من شك في ان النقد تطور منذ ابن سلام الجمحي وبين (Taine) وان المذاهب الفكرية والفلسفية والادبية وحتى السياسية امتحنته اشد محنة ، وتعاورته بالخدش والتحوير والتصويب ، وقليلا ما خرج سالما الا على أيدي القلة القليلة من الجهابذة النقاد . فكم من جيل عد من الشعراء والكتاب العشرات والعشرات ، ولم يظفر لنفسه بناقد واحد نصح فيه صفه الناقد باتم معنى الكلمة : أي هذا الذي اكتمل ذوقه ، وخلص من الاهواء ، واتسعت معرفته بفلسفة النقد ، واستحكم عمله ، ليصدر في آخر الامر حكمه على اثر من الاثار يحدوه في ذلك كما قال الجاحظ : « التجرد للعلم ، وصعوبة الجد ، وثقل المؤونة » .

على انه مهما اختلفت المذاهب والتيارات الفكرية ، واستبد الحماس وطاشت سيئة الطعن والثلب ، فان مبدأ واحدا لا اعرف ناقدا واحدا جديرا بهذا الاسم ، حاد عنه وهو الامانة الفكرية . وهذا المبدأ يقتضي ابراز وجهة نظر المنقود من خلال اثره ، من دون تحريف ولا بتر ولا تشويه ، وذلك بتلخيصها بحيث تظهر للقارىء جلية مكتملة تغنيه عن الرجوع الى الاصل ! * وهذا ما لم يقم به الدكتور ميشال سليمان وجورج طرابيشي بل انهما عمدا : الاول الى اعطاء بسطة عن دور الاداء والتعبير الفني في معركة المصير حسبما يراه ، ثم تصدى الى بعض الجمل مبتورة يناقشها ، والثاني احال القارىء على بحث الاستاذ دكروب الذي يتفق معه في النظرة ، واعتذر عن التلخيص ونحا في النقد منحى الاول .

وبالطبع فان هذه الطريقة في « النقد » معروفة خاصة في المناقشات السياسية الشفهية التي يكون غرضها هو التغلب على الخصم مهما كانت التكاليف، لا لشيء الا لانه لا ينتسب الى نفس العائلة الفكرية ولا يدين بمذهب معين . فكل الاساليب والطرق والوسائل مسموح بها عند ذلك : القدح والتعمية والسفسطة والاغماض والايهام والتظاهر بالعلم والمعرفة . والغرض الاخير هو سحق الخصم وابرازه امام الناس جاهلا قزما ، دعيا لا يرجى من ورائه خير .

وقد كنت ، عند رجوعي من دمشق ، اثر انعقاد المؤتمر الثامن للادباء العرب ، متفائلا شيئا ما ، اذ كنت على علم بان الاراء التي قدمتها في بحثي لا تصادف هوى في قلوب بعض الادباء العرب ، ورغم ذلك فان المناقشات كانت منزلة معقولة لم تسر سيرها الاهوج في المؤتمرات السابقة رغم ان موضوع المؤتمر يكاد لا يتغير من ندوة الى اخرى ، ولكنني عندما قرأت نقد هذين الكاتبين اندهشت لا لشيء الا لانهما كانا موجودين في المؤتمر ولم يحركا ساكنا انذاك . فلماذا هذا الابطاء ؟ ألأن كفة العقل والاتزان قد رجحت في المؤتمر الاخير وخشي اصحابنا من التعرض الى سهام النقد ام ان الذين يهمهما امرهم هم قراء (الآداب) فقط لان منطقهما هذا اصبح غير مسموع ، قد اكل عليه الدهر وشرب ام انهما كما صرح احدهما بذلك « كلفا تكليفا بنفد البحوث » ؟

وعلى كل فان الذي ساءني في هذين النقدين ليس هو اختلافي مع وجهة نظر الناقدين بل استعمالهما لاساليب انكر على النقد ان يتمسك بها واربأ بالفكر العربي ان يتردى فيها وقد احصيت منها ستة : الادعاء واللجوء الى الثلب ، والمنطق المانوي الثنائي ، والسفسطة ، والتعمية والمعرفة التقريبية .

١) الادعـاء :

اليس من الادعاء ان يقول ج. طرابيشي : « اسعى على قدر طاقتي الى تقويم ما قيل لا على اساس ما كان ينبغي ان يقال وانما على اساس أن كل ما يقال جدير بالتقويم حتى وان اخطأ هدفه الاساسي » فبأي حق يقوّم هل هو خروج عن الاخلاق ام هو قد ظفر بالحقيقة المطلقة التي تخول له تقويم الاعوجاج ؟ اين تواضع العالم من كل هذا ؟ وليس من فائدة في استقصاء الشواهد على ذلك اذ لهجة المقال كله تنبيء بأن هناك استاذا كبيرا قد حاز من العلوم الكثير وانتصب يصدر احكامه عل على « أقزام » واصحاب « عقد نقص » ليس من الصعب عليه سحقهم .

٢) اللجوء الى الثلب :

ثم أليس من الثلب والطعن ان يقول ج. طرابيشي في موطن آخر : « وعندما يتنطع ادباء الكلام امام هيئة لها هيبة المؤتمر فلا يتكلمون الا عن غير ما كلفوا بالكلام عنه . فمنهم الذين يتنطعون ان لم يكونوا من الطائشين الذين لا مسؤولية يشعرون بها ، ولا عقل يردعهم؟ وما هو المؤتمر اذا لم يكونوا هم الادباء والكتاب الذين يكوّنون جمعه ام ان هناك ذاتا معنوية تسيّر ، وتكيف وتأمر وتنهي ، ولها الكلمة العليا ومن عداها ـ اذا حاد عنها ـ فهو لا يساوي شيئا ؟ اي فكرة هذه عن الادباء العرب ؟ اليست هي الاستنقاص بعينه ، والوصاية المنكرة ، واعتبار اعضاء المؤتمر دمى تحركها هذه التي تعطي للمؤتمر هيبته ؟

هل يظن الدكتور سليمان وجورج طرابيشي ان هؤلاء الادباء الذين قطعوا آلاف الكيلومترات جاؤوا ليرددوا لحنا واحدا لنغمة واحدة حتى لا يرموا بالتنطع و « عقدة النقص » ؟ نحن لا ننكر عليهما فهمهما للموضوع من وجهة نظر اخرى ، وان اختلفنا اختلافا جوهريا ، ولكننا لا نمضي الى حد اسكاتهما حتى لا يصدحا بآرائهما . الم يكن من اللائق ان يبينا وجهة نظرهما واختلافهما مع وجهة نظرنا من دون منطق « العراة » هذا الذي يخول لصاحبه ان يرمي كل من يخالفه في الرأي بحجر « الوهم البليد » من مقلاعه ؟

رفقا بالادب والفكر العربيين ايها الناس ؟ فالمسؤولية عظيمة لا تسمح بمثل هذه المهاترات في هذا الظرف العصيب . ذلك ان العالم العربي محتاج الى جميع الطاقات مهما كانت وايا كانت .

٣) المنطق المانوي الثنائي :

ثم الا يسيطر على الناقدين هذا المنطق الذي طالما تألمت منه الانسانية وهو منطق الثنائية المانوية التي تقول بان العالم مرتكز على مبدأين : الخير والشر ، النور والظلمة . فهناك الاخيار وهناك الاشرار . الم يقد هذا المنطق الانسانية الى التعصب المقيت وخاصة في ميدان الفكر . الم تتالم منه البشرية أيام كانت النازية والفاشية تروم السيطرة على العالم ، وعندما سيطرت « الستالينية » في روسيا وغير روسيا وقالت لهم هذه طريق الخير اسلكوها ، والا نزلت عليكم لعنتي ثم كان ما كان بعد ذلك وانقلب « جدانوف » خاسئا محسورا وادانه اصحاب ملته في عنف يعرفه ، ولا شك ، « الناقدان » ، يعرفانه ولا بد من كتابات « سولجينستين » و « دانيال » وغيرهما .

---

* راجع في نفس العدد من الآداب ما قام به الاخ عبد الكريم غلاب من نقد للبحوث التي تناولت موضوع التراث والاصالة . فقد عرض الآراء ملخصة بامانة ثم نقدها . هذا بقطع النظر عن محتوى نقده .

فهل يحق صاحبنا الى ان يكونا « جدانوف » في العالم العربي؟ والا كيف نفسر هذه الصواعق التي يستنزلانها من سماء مذهبهما عندما يقول أحدهما « اسعى على قدر طاقتي الى تقويم ما قيل لا على أساس ما كان ينبغي ان يقال وانما على اساس ان كل ما يقال جدير بالتقويم حتى وان اخطأ هدفه الاساسي » . فبأي حق ينتصب مقوما ان لم يعتقد انه ظفر بالحقيقة المطلقة والخير المحض والنور الاسمى ؟

لماذا اذن نجرب طرقا ومبادىء قد افلست في اماكن اخرى ؟ ام ان بعض الادباء في الشرق العربي آلى على نفسه ان يجر وراءه دائما النظريات الفاشلة التي تجاوزها الزمن ؟ أليس منطق صاحبنا هنتو بالضبط ما كان عليه جانب من الفكر الاوربي في الخمسينات ولكن بوضوح أقل تخمة فكرية اكثر تتجلى في هذه الترجمات الغامضة لاقوال أصبح يناقشها حتى الذين اعتنقوها سابقا من امثال : « ان الناس هم الذين ينتجون مظاهرهم وافكارهم . ولكن الناس الفعليين العاملين مثلما هم محددون بتطور محدد من قبل قواهم الانتاجية ، وما يتصل بها من علاقات بما فيها اوسع الاشكال التي يمكن لهذه العلاقات ان تتخذها » ، هل فهمت شيئا ؟ هو ولا شك من قبيل ترجمة : «La Condition humaine» « بالشرط الانساني » عوضا عن « المنزلة البشرية » او « الوضع البشري » . رحماك يا رب فاي لخبطة في عقول أبناء العربية تحدثه مثل هذه الترجمات !

٤) السفسطة والتعمية :

اعظم سفسطة توقع القارىء في الخطأ وتجعله يرمي الكاتب بالنقص في التحليل والاستنتاج هو اقلاع الناقد عن الاشارة الى ان هذه البحوث ، في مواضيع كتبت فيها الكتب ، هي في الواقع تلخيص فرضه المؤتمر على الكتاب وانجر عنه ان اتت الافكار مقتضبة تحتاج الى التبسط والتفسير والشرح ، وقد وقع ذلك في المناقشة التي تلت تلخيص البحوث .

لهذا فان ما قلته في المقدمة من افلاس النهضة العربية انما هو موقف شخصي ليس المقام التبسط فيه وهو « خروج عن الموضوع » والناقد حريص على الابتعاد عن ذلك كما كرره مرات ومرات في « نقده » والامثلة في هذا الباب كثيرة .

وثاني سفسطة هي الوقوف في « ويل للمصلين » كما نقول في تونس اي الاكتفاء باجزاء من الجملة وجانب من الفكرة للتدليل على الخطأ بينما البقية كفيلة بالتوضيح والشرح .

فقد عاب عليّ ج. طرابيشي ان نسبت افلاس النهضة الى سيطرة الادباء والمصلحين فقط ونسي ان يشير الى الجملة التي بعدها التي قلت فيها « وكانت في الواقع يقظة » واردت هنا ان ابين الفرق بين النهضة واليقظة . وادت : « يقظة تحسس فيها العالم العربي وجوده تجاه العالم الاوروبي وحاول ان يجابه تحدياته ويقف على قدميه خوفا من التداعي والسقوط » وزدت وهو ما غفل عن الاشارة اليه : « لذلك لم ينشأ عن هذه النهضة ما اكسب الشعوب العربية المناعة والقوة بواسطة القدرة على الخلق في ميادين الحياة كلها ». وهذا الذي اخفاه صاحبنا لان كل عربي بعد نكسة ١٩٦٧ يسلم به تسليما . ثم اني لم اقل ان الادب والادباء والمصلحين هم السبب الاصلي في ذلك بل قلت ان دورهم كان عظيما وهذا يعني ان هناك اطرافا اخرى قامت بدورها في هذا الافلاس .

ومن السفسطة التي تبتز منك الابتسامة ان الناقد يوافق على هذا ويقول : « وصحيح بعد ذلك ان عصر النهضة العربية تميز بتضخم ادبي على حساب ضمور العلم والصناعة الخ » ولكن اين الخطأ اذن والحال انه وصل الى نفس الحكم . تريث ايها القارىء الكريم ولا تتسرع اذ الحكمة ستقول كلمتها « ولكن خطأ الاستاذ البشير بن سلامة هو اعتقاده بان تضخم الادب هو الذي ادى الى ضمور العلم والصناعة مع ان العكس ههنا هو الصحيح فالتضخم الادبي ـ والايديولوجي بصورة أعم ـ هو نتيجة لنقص التطور الاجتماعي والاقتصادي وليس علة له » اليس هذا من قبيل السفسطة ؟ وعلى فرض انني قلت ذلك فانني أساله اذا كانت علة التضخم الادبي هو نقص التطور الاجتماعي والاقتصادي فما هي علة هذا النقص ؟ اليس هو طغيان العقلية الادبية الايديولوجية التي مآلها تضخم الادب ؟ ثم اساله اخيرا ما هو اصل نشأة الدجاج : اليست هي البيضة ؟ والبيضة من اين تاتي ؟ اليس الدجاج الذي يبيضها ؟ سبحان الله !.

ثم بعد كل هذا ، يلومني ، ويأخذ عليّ هذه الفقرة التي يراها من حقائق » لا باليس » : « ان التعبير الفني في الواقع اوسع من ان نقصره على الادب والكتابة اذ هو ينفتح لميادين اخرى هي اسمى من ان « تحصى وهي تتناول ألوانا من الرسم وضروبا من النحت واشتاتا من فن العمارة والتلفزة وغيرها » ولكنه لو ربطها بما سبق لفهم انني ألوم من طرف خفي المؤتمر كله على حصر التعبير الفني في الكلمة واستمراره فيما افلست من اجله النهضة الاولى . وهكذا اردفت ذلك ، لو تدبر الاخ الكريم ، بهذه الجملة « وان الاخطاء التي وقعنا فيها في نهضتنا الاولى او على الاصح يقظتنا ماثلة اليوم ايضا ، وافدح هذه الاخطاء اتكالنا على الكلمة واعطاؤها القوة السحرية التي نتكب على مشاكلنا فتحلها ، وتنقض على الاخطاء فتبددها » اليس من حق كل مفكر عربي ان يندّد بهذا وقد ندّد به الشعراء والكتاب العرب بعد نكسة ١٩٦٧؟ فهل هذا من قبيل حقائق « لا باليس » ام هو الداء الذي ينخر الى اليوم الامة العربية ؟ انني اربأ بصاحبي ان يكون قد خفي عليه هذا المعنى الظاهر وانسب تخريجه الى السفسطة حتى لا اتهمه بشيء اخر.

ومن السفسطة ايضا تعليق « الناقد » على هذه الفقرة : « اذا كان التعبير الفني يتغير في لغته بحسب تغير الكتاب ، واذا كانت اساليبه تختلف باختلاف اصحابه فانه يبقى ذلك النمط من اللغة الذي يعتمد التأثير على العقول والحواس فيعلق بالاذهان وينفذ الى شغاف القلوب ، بقطع النظر عن الفكرة التي اعتمدها والصورة التي ارتضاها والخيال الذي ركبه » . وهذا التعليق يقولني ما لم اقله ، ويوقع في الخطأ القارىء الكريم اذ يؤول كلمة « بقطع النظر » موهما انني لا اعطي للفكرة والصورة والخيال اي اهمية . والحال ان الذي قصدته وهو ظاهر في تحديدي لماهية التعبير الفني في الفقرات الموالية هو هذا الخلط الكبير الذي اصبح طاغيا على الادب العربي بين الكلام العادي وبين التعبير الفني . اذ يكفي في نظر بعض « النقاد » ان يتناول الكاتب او الشاعر موضوعا صادف هوى في نفس « الناقد » وكان متماشيا مع اتجاهه . ليصبح تعبيره ساميا فنيا بينما هو الاسفاف في اللفظ ، والسماجة في التركيب . والعكس بالعكس : يكون الموضوع بعيدا عن اهتمامات « الناقد » لم يتصور ابعاده لسبب من الاسباب ، وكان حسن الديباجة له وقع في النفس فيصبح عند « ناقدنا » الاسفاف بعينه ، واللخبطة .

ويتضح جليا ما اقصد عندما قلت : « ولكن لقائل ان يقول ما هي طبيعة التعبير الفني ، وما هي نوعيته التي تخول له هذه القدرة، وتمكنه من ان يثبت امام اقوى التحديات ؟ هل هي المعاني التي يحملها للغة ، والصور التي يخرجها ، والخيال الذي يستنبطه لها ، ام هو سر من الاسرار يجعل هذا التعبير فنيا ، صادرا عن روح خلاقة، وذاك التعبير الاخر كلاما عاديا متداولا بين الناس » . ثم ازيد للتاكيد: « وهو الذي يجعل المعنى الواحد مقبولا من اديب وغير مقبول من آخر ويضفي على صورة الاول روعة لا نجدها في الثاني » هل يبقى بعد هذا التسلسل في الافكار شك في ان عبارة « بقطع النظر » هذه التي انقض عليها صاحبنا دليلا على « التناقض » لا تعني ما اراده وليس معناها عدم اعتبار الفكرة والصورة والخيال بل هو مقارنة بين الكلام العادي والتعبير الفني .

ثم الا يخشى « ناقدنا » من هذا التحديد ان يوضع في سلسلة

المهملات وابل من الادب العربي المعاصر الذي يعتبره ساميا ، اذ هو حسب ما اعرف منه ومن نقده لا ينظر في الانتاج الادبي الا من الناحية التي تتماشى مع منحاه واتجاهه ، ويترك جانبا كل ما يتعلق بالقدرة على الخلق وتوليد المعاني واثراء اللغة وتوسيع نطاقها براشق العبارة وناقد التركيب . وكل ذلك لا يكون بالفراغ في الفكرة وسطحي المعاني والا اصبحت ادعو الى ادب عصور الانحطاط المنمق للالفاظ والخالي من العمق . وهذا لا يمكن ان يقبل خاصة وان القسم الثاني من البحث يحدد للخلاق مسؤوليته ويربطه بمجتمعه اشد الارتباط اذ قلت : « غير ان الذي ييسر من مهمة الاداء بالنسبة للتعبير الفني ، هو ما ذكرناه ، من وجوب ارتباط الخلق الادبي بواقع المجتمع وهذا يفرض على الخلاق ان تكون اغراضه منبثقة من مشاغل امته نابعة منها وهو امر لا يمكن ان يحيد عنه الخلاق الحق » .

ومن باب السفسطة ايضا تعليقه على هذه الفقرة : « لو كنت من ذوي الاختصاص في العلوم الصحيحة وحبذا لو خضعت آثارنا الادبية الى المقاييس العلمية في المخابر وحلقات التجربة ، لمضيت أستنطق الخطوط البيانية وأوثق الكتاب وآثارهم والشعراء وقصائدهم على الواح عمودية وافقية الخ ... » قال ج. طرابيشي تعليقا على هذه الفقرة « وكاتب البحث لا يناقض نفسه على صعيد الافكار فحسب بل على صعيد الامنيات » وفاته ان « لو » ليست للتمني بل هي حرف امتناع لامتناع ويعني ذلك ان الجواب يمتنع لامتناع الشرط اي بما انني لست اختصاصيا في العلوم فانه لا يمكن لي اخضاع الآثار العلمية لذلك ، وزيادة على هذا فاني اشفق على الادب من ان يحنطه العلم . وهذا ليس من باب التمني وليس فيه اي تناقض بل هو دعوة وتحريض على مراعاة العلوم الصحيحة في دراسة الادب وتخلص الى تحديد ماهية التعبير الفني بصورة اخرى . وعلى كل فاني اعد تعليق « ناقدنا » من باب السفسطة حتى لا اتهمه بشيء آخر قد يعتبر من قبيل الطعن والثلب .

وتختلط في كثير من التعاليق التعمية وهي اخفاء المعنى الحقيقي بالسفسطة مثلما ذكره عن « حقائق لا باليس » او اعتباره ان اجتماع ضروب الخلق الادبي في نمط من التعبير هو التعبير الفني من البديهيات . والحال ان كثيرا من المدارس الادبية لا تسلم بذلك وترى ان اللغة هي اداة ووسيلة فحسب . وتكثر في باب التعمية الشواهد وانما ذكرت ما ذكرت على سبيل المثال لا الحصر .

ومن باب التعمية والسفسطة ما عابه عليّ من استعمال كلمة « اقانيم » وقد قصدتها للتدليل على الدغمائية . اذ هي كما قال من اللغة اللاهوتية التي تهرأت الفاظها وتهلهلت معانيها وقد اقحمتها قصد الدلالة على تمسك مؤتمرات الادباء العرب ببعض الكليشهات والمفاهيم التي تعود وتكرر في كل مناسبة كانها ضرب من لغة اللاهوت .

٥) المعرفة التقريبية :

اما المعرفة التقريبية فهي واضحة ، في مواطن عديدة .

واذكر منها على سبيل المثال ما قاله ج. طرابيشي عن الاسلوب بعد ان انكر عليّ ما استشهدت به من شعر للمتنبي في سيف الدولة، ونحن اذ ذاك في الشام ، ومن شعر شوقي في ابي الهول المتنبع لسقطات الخلق وهناتهم وما اكثر آباء الهول ، قال : « على ان الكاتب لا يستشهد بالمتنبي وشوقي وحدهما بل « فلوبير » ايضا وفلوبير هو القائل كما لا يخفاكم الاسلوب انما هو الانسان « ولست في حاجة هنا الى ان انبه القارىء الكريم الى ان القائل لهذه الجملة ليس « فلوبير » بل بوفون (Buffon) في خطاب القاه عند قبوله بالاكاديمية الفرنسية ولم يقل هذا الكاتب الفرنسي « الاسلوب انما هو الانسان » بل قال : « الاسلوب هو الرجل (Le Style c'est l'homme) والفرق كبير بين القولتين كما لا يخفى على القارىء النابه ، والواقع ان « بوفون » قال: « الاسلوب هو الرجل نفسه » . وهو يعني بالضبط خلافا لما يظنه الكثيرون « ان المعارف والاحداث والاكتشافات تفتك بسهولة، وتتناقل، وتكيف على ايد اكثر براعة » غير ان الاسلوب يبقى ملكا خاصا للكاتب فاين نحن مما ظن الاستاذ ج. طرابيشي واين نحن مما قصده « فلوبير » في قولته التي مضت الى ابعد مما مضى « بوفون » وسلمت بوجود جدلية متشعبة فيما ينتجه الفنان بين الجانب الشخصي البحت وبين ما يربطه بالمجتمع والعالم ؟ واين نحن من هذه الجدلية التي اكدت عليها في بحثي ومما يقوله على لساني « ناقدنا » في انني اقمت علاقة تعادل بين الاسلوب والانسان (بقصد الرجل او الفرد) او الانا . فاذا كانت هناك علاقة تعادل بين الاسلوب والانسان وبين الانا لا بين الانسان اي النحن . اما والحال هذه فهناك جدلية بين الاسلوب والانسان او بين الانا والنحن ، وقد عبر عنها الشاعر العربي عروة ابن الورد في ابيات ذكرتها ولم يناقشني حضرة « الناقد » في استعمالها ولا عاب عليّ ذلك مثلما فعل في استشهادي بشعر المتنبي وشوقي قال عروة :

« وسائلة اين الرحيل ؟ وسائل ... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه
مذاهبه ان الفجاج عريضة ... اذا ضن عنه بالفعال أقاربه
فلا اترك الاخوان ما عشت للردى ... كما انه لا يترك الماء شاربه »

ثم الا تدعو « هذه الحقائق التي لا يختلف عليها (كذا !) اثنان » كما يلذ لصاحبنا ان يكرر ذلك في كل مناسبة ، الا تدعو الى الشرح والى وضع النقط فوق الحروف خاصة وان الاستاذ ج. طرابيشي يخلط بين عبارة الاسلوب والتصنع في ادب عصور الانحطاط ؟

وان الطرافة فيما قدمته من فروق بين الاسلوب واللغة كانتمحل تجاهل من ناقدنا واعتبرها من الحقائق البدبهية وظن انني اساير « بوفون » في فهمه لظاهرة الاسلوب بينما ـ لو علم ولعله علم ـ انني كتبت في كتابي « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » بالحرف الواحد : ذلك انني عندما اقرأ بتثبت قصة او قصيدة او مسرحية لاديب من الادباء الكبار المعاصرين اقف مبهوتا امام الظاهرة الآتية : الاثر الادبي مطبوع بطابع الكاتب مرتبط بشخصيته الادبية في اعنف صورة اي باسلوبه في معناه التقليدي ولكنك تستشف من ورائه ظل كاتب آخر قديم او شاعر فحل من شعراء العصور المتقدمة فتحتار في الامر ، وتدفع دفعا الى القول بان الذي يميز الكاتب الكبير او الشاعر العبقري ليس الاسلوب فقط بل شيء آخر فوق الاسلوب وفوق الالفاظ وتركيبها هو قهر للغة من جديد ، بحيث تكون امام لغة لا تشبه لغة قديمة في اسلوبها وتركيبها اي تكون امام نمط آخر فريد في بابه . »

واردفت « لازيد توضيحا لرأيي أشبه اللغة بالكساء ، فانت اذا اردت ان تصنع لك كساء وتذهب الى الخياط يدلك على كتاب فيه انماط كثيرة فتختار نمطا ابتكره من قبل مبتكر ، له اسمه ومكانته في هذه الصناعة . ثم يصنع لك الخياط بعد القيس والتهذيب والتطوير كساء اذا لبسته يصير جزءا منك او هو انت . وهذا الذي قام به الخياط هو الذي اسميه الاسلوب اما النمط الذي اخترته فهو اللغة التي ابتكرها غيرك » .

ولهذا فان ما يسميه « بوفون » الاسلوب افرعه الى فرعين : الجانب الشخصي وهو ما دعوته الاسلوب والجانب المشترك بين افراد امة واحدة ، وهاتان الركيزتان بؤلفان ما سميته : اللغة التجاوز ، فاين نحن من فهم الاستاذ ج. طرابيشي من ان « الاسلوب اول ما يعني امحاء الشخصية وانعدام الانا لا طغيانها » أظنه يعني بالاسلوب هنا التصنع في الكتابة والحذلقة التي ظهرت في عصور الانحطاط كما ذكرت ، والا كيف نفهم قوله : « وهذا بعكس البغاث من النظامين والناثرين الذين حكموا على أناهم بالانعدام سعيا وراء الاسلوب والديباجة » فليراجع اذن حضرة الاستاذ معلوماته وليتدبر في « الحقائق التي لا يختلف عليها اثنان » .

بقيت مسألة اخيرة هامة مرتبطة في الواقع بهذا الذي عالجناه في نطاق الاسلوب وهو اننا ما فتئنا نلبس كساء ، خيط على نمط لم نستنبطه نحن ، وهذه المسألة تتمثل في تعليق « ناقدنا » على ما قلته في شأن الغزو الحضاري الذي يقتل شخصيتنا ويمسخها وقد لذ لصاحبنا ، هنا ايضا ، ان يقولني ما لم اقل . لهذا اورد الفقرة كاملة حتى لا يبقى اي التباس قلت :

« الظاهرة الثانية هي اكثر تسترا واخطر لانها برزت في قالب تحديات العصر لنا ، هذا العصر الذي استولت عليه حضارة غير حضارتنا وفرضت علينا ان نعيش ونتصور العالم بمنظارها لما اكتسبته من قوة اساسها العلوم والتقنية والتكنولوجيا ، ولئن شعرنا بانه لا مناص من ان نأخذ من اسباب هذه القوة المادية بنصيبنا فان شعورنا اعظم بوجوب تمسكنا بشخصيتنا واصالتنا لننظر الى هذا العالم بمنظارنا ونتصوره حسب مقومات حضارتنا » ثم اردفت : « معركة المصير اذن هي بالنسبة للخلاق منا وعي بهذا كله ... » وهي بأن يكون انتاجه الفني انسانيا آخذا باسباب العصر نافذا بايقاعه الى قلوب وعقول اهل حضارة اليوم ولكنه في كل هذا يعبر عن الروح العربية الاسلامية اي عن حضارتنا في مختلف أوجهها بصورة يكون معها محببا مفهوما لا بالنسبة لنا فقط بل لاجزاء اخرى من العالم » .

وليس في نيتي ان اعلق على الكلمات الجارحة وروح الثلب التي درج عليها « الناقد » لان ذلك لا يهمني بقدر ما يهمني وضع الامور في نصابها بالنسبة لهذه المسألة المصيرية .

فلقد اتهمني بانني ادعو الى « ايديولوجيا انعزالية شوفينية » والحال ان الفقرة الاخيرة تعبر عن حرص على المساهمة الفعالة في المجهود البشري وايجاد حوار بين البشر ، ولكن الذي اندد به هو ان نبقى مستهلكين فقط الى ابد الابدين لكل ما تاتي به الحضارة الغربية سواء كان ذلك اختراعات او نظريات . وليس هذا موقفا عدائيا لاي كان بل ان الانعزال اصبح اليوم امرا لا يمكن ان يفكر فيه اي انسان عاقل. ولكن المنطق السليم يفرض ان يكون اخذ وعطاء . ونحن اليوم نأخذ كل شيء حتى النظريات المهترئة المسمومة المعدة للتصدير لتخدر الشعوب وتجعلها لقمة سائغة ، ولا نعطي شيئا وليس قصدنا كما قولنا « الناقد » ان « النصر الاكبر ان نعكس المعادلة ونخضع العالم باسره لمقومات حضارتنا » ، وهذا اقل ما يقال فيه انه تحريف فظيع لما قلت .

ثم ان هناك شنشنة معروفة رددها ايضا الاستاذ ج. طرابيشي وهي عالمية الحضارة . كلنا يتوق الى ان يصبح البشر يوما ما في تفاهم تام وان تتحد نظرتهم وان تزول جميع الخلافات . ولكن الواقع المؤلم يجعلنا نسلم بان هناك حضارات في العالم اقل ما يقال فيها انها تتنافس . فاي عالمية للحضارة يعني : هل هي الحضارة الروسية ام الصينية الماوية ام اليابانية ام الغربية بالوانها . فاذا كان هذا واقعا فلا مهرب لنا الا ان نصنع لنا حضارة نابعة منا ، عصرية بالم معنى الكلمة ، اساسها الاخذ والعطاء ، لا العداء والانعزالية ، ومبدؤها هو بطبيعة الحال الاشتراكية النابعة من روحنا العربية الاسلامية اذ ان الاشتراكية ، كما يعلم حضرة الناقد ، اشتراكيات . وان قصد حسبما فهمت من تحليله نوعا واحدا من الاشتراكية .

هذه هي الاصالة التي أنادي بها والتي طاب لناقدنا ان يأتي بمثال يدلل به على خطأ التمسك بهذا المبدأ اذ قال : فلو رجع على سبيل المثال الى تاريخ الحركة السلافية والحركة النارودنية (الشعبية) في روسيا في القرن التاسع عشر لوجد ان اطنانا من الصفحات قد سودت في الدفاع عن اصالة روسيا ورسالتها الى العالم في محاولة يائسة ومثالية لاغلاق باب التطور الراسمالي في روسيا « وليس لي ما اقول تعليقا على هذا الا ان التاريخ يدل على ان هؤلاء قد مهدوا لحركة لينين وان رسالة روسيا الى العالم قد بلغت ، وان ستالين قد حقق حلم السلافيين ، وان الروسيين لم يتنكروا ابدا لمن قضى حياته وهو يحلل ويصف الروح الروسية اعني : دستيفسكي الذي احتفل الاتحاد السوفياتي اخيرا بمرور مائة سنة على ميلاده » .

واخيرا فاني لا اعلق على ما اتهمني به « الناقد » من تعصب ديني اذ اثبت في عبارة « الروح العربية الاسلامية » كلمة « الاسلامية » وحذف عربية لست ادري لماذا ؟

بهذا اعتقد انني وضحت وجهة نظري في مسائل هامة تتعلق باسس النقد وبالادب بصفة عامة والمشاكل الحضارية المصيرية ، ولكنني رغم ذلك متيقن ان التحليل في مثل هذه المواضيع لا يمكن ان يستنفده مقال مهما طال ، وان الرد وان توخي فيه الانسجام والوحدة يبدو متقطعا . فمعذرة ايها القارىء الكريم .

البشير بن سلامة

تونس

نازك الملائكة وادب اللامعقول

بقلم سلافة العامري

في عدد نيسان ١٩٧٢ من الآداب قدمت الشاعرة الرائدة السيدة نازك الملائكة دراسة عن مسرحية « يا طالع الشجرة » للحكيم ، باعتبارها من أدب اللامعقول . وقد حددت الكاتبة عناصر اللامعقول في المسرحية كما يلي :

١ ـ ان الكاتب جمع الماضي والحاضر والمستقبل في وقت واحد دون اية محاولة للتعليل .

٢ ـ اسلوب الحديث بين الزوجين .

٣ ـ الفهم المقلوب لدى الزوجين اي ان كلا منهما يظن الاخر يحدثه عما يهمه هو لا ما يهم الاخر .

٤ ـ عدم اعتراف الزوجة بالمكان الذي كانت فيه .

٥ ـ نبوءة الدرويش بان بهادر سيقتل زوجته في المستقبل .

٦ ـ شخصية الدرويش تمثل في رأي الكاتبة اكبر عناصر اللامعقول في المسرحية .

ومن ثم اخذت الكاتبة الفاضلة على المؤلف تخبطه في رسم شخصياته التي بدت للكاتبة منطقية تارة ولا معقولة تارة اخرى . فعند الحديث عن شخصية الزوج بهادر قالت بالنص : « ووجه الخطأ انه صور في شخصية بهادر مستويين اثنين ، المستوى الاول مستوى البراءة وطهارة النية ، وعلى هذا المستوى راح يتحدث عن قتل زوجته دون ان يشك المحقق فيه ، كما ان الطفل البريء يتكلم باشياء قد يساء تاويلها واما المستوى الثاني فهو مستوى الرجل الاجتماعي الذي يعرف جيدا ان القتل جريمة رهيبة يعاقب عليها المجتمع اشد عقاب ، وليس يمكن ان يجتمع المستويان في شخص واحد » .

ومن مآخذها ايضا عليه قولها عند دراسة شخصية الزوجة بهانة ما يلي :

« والسؤال الذي يلقيه الناقد هنا هو : كيف ولماذا هذا التحول عند بهانة ؟ احسب ان توفيق الحكيم معرض للنقد هنا ، فقد كان يجب ان تظهر الزوجة وكانها تعرف ان الاحداث التي تقع لاهل بيتها تختلف عن اي حدث معقول يقع لغيرهم من العائلات ، اننا لا ندري هل اعتادت الزوجة امثال هذه الشطحات ؟ واذا كانت لم تعتدها ، فان ذلك يسيء الى تاليف المسرحية ويلقي اللوم على الاستاذ توفيق » .

ثم تعلق الكاتبة على حادثة قتل الزوج للزوجة بقولها : لقد هيأ الاستاذ توفيق كل اسباب القتل ولكنه لم يجعل بهادر يقتلها الا لسبب مباشر لا يمكن تحاشي الغضب والثورة بازائه ، فكان المؤلف هيأ الاسباب سدى وترك القتل يقع باعتباره حدثا طارئا ، اوجدته الصدفة المحضة.

يبدو لنا وكان الكاتبة ارادت ان تقول ان الاستاذ الحكيم ليس له رؤيا واضحة اي خلفية فكرية معينة مفروضة في ذهنه واراد التعبير عنها بهذه المسرحية ، لذلك جاءت شخصياته وبناء احداثه تتراوح بين

المعقول تارة واللامعقول تارة اخرى .

وعندما تساءلت الكاتبة الفاضلة في نهاية دراستها عن معنى اللامعقولات في المسرحية ، ظننا انها ستنتهي الى تحديد « الفكرة الكلية » التي اراد الحكيم طرحها من خلال هذه المسرحية بشخصياتها غير المعقولة في ذواتها وفي علاقاتها مع الاخرين، وفي احداثها اللامعقولة ايضا والمفتقدة للتسلسل المنطقي ، ولكنها اكتفت بقولها ان هذه كلها أعاجيب العقل الانساني ، وعقبت على ذلك بالتعجب من اقبال الادباء الشبان على هذا النوع من الأدب .

فالذي نراه بعد الدراسة التي قدمتها الكاتبة الكبيرةعن المسرحية والنتيجة التي توصلت اليها فيما يتعلق بادب اللامعقول بصورة عامة أن السيدة فلانة قد افرغت هذا الادب من كل محتوى فكري عميق ، ولم تر فيه الا صورة للخوارق التي تزخر بها الآداب الشعبية في العالم، هذه الخوارق التي قصدت لذاتها لا باعتبارها وسيلة للتعبير عن رؤيا محددة للوجود الانساني وعلاقته بالكون والحياة ، ومما يؤيد رأيي هذا أن الكاتبة الفاضلة قالت ان الادب العربي عرف هذا النوع من أدب اللامعقول كقصة عنترة بن شداد ، واقاصيص الف ليلة وليلة.

وهذا الاستشهاد في حد ذاته انما يأتي مؤكدا للنظرة الجزئية التي نظر بها العربي فيما مضى الى الحياة ، ويبدو انه لا يزال ينظر النظرة نفسها حتى اليوم ، حتى قيل بأن الادب العربي هو ادب جزئيات لا ادب كليات .

والذي نعرفه ان لمسرح اللامعقول منطلقين هامين ، الاول هو تحطيمه للعلاقات الواقعية بين الاشخاص والاشخاص ، وبين الاشياء والاشخاص ، وبين الفرد ونفسه ، وهو ايضا ايصال للواقع بالمفاهيم الخاصة التي تنفذ الى مفاهيم عامة بطريقة غير واقعية مفروضة في ذهن المؤلف ومنقولة كواقعة لا منطقية على المسرح .

والمنطلق الثاني هو التوغل في عالم الفرد الخاص وتعرية ذهنيته، اذ ان الفرد لا يمكن ان يكون في عالمنا الحاضر نقي المخيلة مركز التفكير في موضوع واحد حتى في حالات الاصغاء والحديث ، فبهذه التعرية اصبح الحوار متداخل الشكل متعدد المضامين، ولا يخضع للفعل وردود الفعل ، ولا لحالات السؤال والجواب المعقولة ، ومما ان كتاب هذا الفن يرون الوجود فارغا وعبثيا وبلا معنى اصبح الحوار صورة لهذا الفراغ ، فاقدا للتسلسل المنطقي . الا ان هؤلاء الكتاب لم يتركوا الانسان يضيع في هذه التاهة بل سعوا الى تحديد موقف الفرد من هذا « اللامعنى » وذلك بالدعوة الى الرفض .. رفض الخضوع للمبادىء العامة او السلوك المتعارف عليه بحكم العادة ، ووضع الانسان وجها لوجه امام حقيقة واحدة هي ان عليه ان يعيد النظر في موقفه وحياته من جديد ، اذ انه لا منقذ له في محنته ولا مسيح آخر يتحمل آلام الناس ، فهو لن يأتي اليوم ولا غدا ولا بعد غد .

وهكذا نرى ان الاحداث والشخصيات في مسرح اللامعقول والخارقة للمألوف لم تقصد لذاتها ، وانما للتعبير عن فكرة عامة كلية، فما دامت الكاتبة الفاضلة سلمت بان مسرحية الحكيم هذه هي من ادب اللامعقول فلماذا اكتفت بتحديد مظاهر اللامعقول في الشكل ولم تبحث عن الدلالات البعيدة كان تشير مثلا ان تكرار الزوجة بهانة لقصة ابنتها التي اسقطتها منذ اربعين سنة ، وهذا الحوار الذي يدور بين الزوج والزوجة دون ان يفهم احدهما الاخر انما هو دليل على ان الانسان هو هو لم يتغير من جهة ، وانه يعيش معزولا تائسا لا يدرك من انسانيته الا انها جنين اسقط في شهره الرابع ، بينما كل شيء ضاع في متاهات النسيان من جهة اخرى .

ولعل الدلالة الوحيدة التي اشارت اليها الكاتبة الكبيرة هي قضية الزمن وفقدانه للمفهوم التقليدي .

دمشق — **سلافة العامري**

حول عدد « الآداب » الخاص بالادب التونسي

تلقينا البيان التالي :

بلغنا ان « اتحاد الكتاب التونسيين » قد اتفق مع مجلة « الآداب» عن طريق وفده الى مؤتمر الادباء العرب بدمشق على تخصيص عدد من اعدادها لنشر الادب التونسي المعاصر وفعلا تولى الاتحاد جمع الانتاج والنظر فيه قبل ارساله الى المجلة المذكورة وكان موقفنا ان رفضنا المشاركة في هذا العدد لاسباب يعرفها المسؤولون عن الاتحاد ونود احاطة اخواننا اعضاء اسرة « الآداب » علما بها واطلاع قرائها عليها رفعا للالتباس وخدمة للحقيقة .

ان السبب الرئيسي في غياب اغلب كتاب الطليعة التونسية من هذا العدد يعود الى عدم اعتراف متبادل بين الاتحاد وهؤلاء الكتاب، وذلك منذ تأسيسه الى اليوم ، نود بيان اسبابه وتوضيح علله . فهذا الاتحاد ظهر في ظروف شهدت تقهقر الادب الكلاسيكي وتقلص ظله وبالتابع انسحاب ممثليه انسحابا يقابله تأكد الحركة الادبية الجديدة وقلبها للهياكل الادبية القديمة منها والمستوردة في القصة والشعر والنقد وذلك ضمن اتجاه عام عرف باسم الادب الطلائعي التونسي .

واذ شعر الكلاسيكون بتقهقرهم على صعيد الواقع فقد رأوا ضرورة استعادة مكانتهم ازاء الحضور المتأكد والمستمر لجماعة الطليعة ولم يجدوا احسن من تكوين منظمة تجمع شملهم وتحميهم صبغتها الرسمية فيظهروا بمظهر الممثلين الشرعيين للادب التونسي داخل البلاد وخارجها وفي ذات الان يمكنهم طمس الاصوات الجديدة وتشويه حقيقتها وتغطية مجال تحركها وذلك بوسائل خفية وظاهرة من بينها وضع شروط مجحفة للانخراط في الاتحاد لا تتوفر في غالبية الجدد من الكتاب كاشتراط الاقدمية في النشر او توفر كتاب مطبوع بالنسبة للمترشح وهما شرطان يثيران امهات المشاكل التي يعاني منها الكاتب التونسي الحقيقي منذ ابن خلدون مرورا بالشابي ووقوفا عندنا اليوم . اما الاقدمية فهي شرط اعتباطي جائر لا يمكن ان يأخذ به عاقل او يعتمده نزيه اذ بيننا من يتمتع باقدمية العشرين سنة واكثر في الكتابة دون ان يحصل منه اثر او اعتبار رغم انكباب دور النشر على طبع مؤلفاته ونشرها وتزيين واجهات المكتبات بها . واما توفر الكتاب فلاتحاد الكتاب ان يسأل دور النشر بالبلاد عن امكانيته بالنسبة لامثالنا امام زحام « كتب التراث » واذواق اللجان المسؤولة ونوازعها التقليدية .

ولكل هذه الاسباب مجتمعة نطلب من اخواننا في مجلة الاداب تنبيه القراء الى ان ما نشر بها عن الادب التونسي لا يمثل الا جوانب معلومة محددة . وان الحاحنا على اثبات هذه الحقيقة انما يعود الى حرصنا على مكانة تونس الثقافية بين البلدان الشقيقة واعلام اشقائنا فيها بوجود ادب عندنا في مستوى الاداب العالمية المعاصرة تمكن من تجاوز حدود البلاد عن جدارة ومن استعادة مكانة الكلمة وجدواها ازاء القراء .

ورجاؤنا في الختام ان تبلغ « الاداب » صوتنا الى قرائها الكرام خدمة للحقيقة مع تمنياتنا بان تخصص عددا من اعدادها للادب الطلائعي التونسي الذي ما فتىء يتجاوز نفسه وهو الان بصدد الدخول في منعرج جديد .

تونس في ١٩ — ٤ — ١٩٧٢

الامضاءات :

الطاهر الهمامي — محمد بن صالح بن عمر — المنصف الوهايبي — عبدالسلام خروف — عزالدين المدني — سالم ونيس — حسين الواد — محمد الحبيب الزناد — احمد الحاذق العرف — سمير العيادي — محمود التونسي — معادي التهامي الكار — يوسف الصديق .